ابن ماجد

أمير من امراء البحر العرب[1]

لفريدي حافظ طوقان

بلغ العرب درجة في البحرية لم يبلغها غيرهم من الامم التي سبقتهم ، أخضعوا البحار لأساطيلهم ، ولم يبأوا بمدها وجزرها ، وساحوا بسفنهم المحيطين الهندي والهادي ، وأصبح لهم دراية وخبرة في الملاحة . وان أمة كان هذا شأنها ، وكانت هذه درجتها لمن الطبيعي ان يظهر فيها من مهر في الملاحة وبرع في البحرية واطلع على اسرارها ووقف على دقائقها . ومن الطبيعي ايضاً أن يظهر فيها من ألّف المؤلفات العديدة ، ووضع الكتب الكثيرة في علم البحار ، ولا عجب اذن اذا كانت هذه المؤلفات وتلك الكتب منهلاً نهل منهُ كثير من ملاّحي الغرب ، ولا عجب اذن اذا استعانوا بها في تسيير سفائنهم ورسم الخارطات والصورات البحرية وفي معرفة المواقع والمرافىء والخلجان . ومن هؤلاء الذين نبغوا في الملاحة ووقفوا على دخائلها وعرفوا أسرارها ابن ماجد الذي ظهر في القرن التاسع للهجرة ، وهو شهاب الدين احمد ابن ماجد بن محمد بن معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي كان يلقب نفسه بشاعر القبلتين وقد حج الى الحرمين الشريفين ويعرف بسليل الاسود ، وكان ابوه ومن قبله جده من الذين اشتهروا في الملاحة حتى ان جده كتب رسالة في الملاحة في البحر الاحمر خدمة للسفن التي تقل الحجاج ، ولقد زاد والد ابن ماجد على هذه الرسالة نتيجة اختباراته الشخصية [2] . ومن هنا يظهر ان ابن ماجد منحدر من عائلة اشتهرت بالشؤون البحرية والاعتناء بالملاحة ، فلا غرابة اذا نبغ هو في ذلك ، ولا عجب ايضاً اذا فاق ماجداده في هذا كله . وقد اعترف بعض المنصفين من علماء الافرنج بفضل العرب (ولاسيما ابن ماجد) على الملاحة البرتغالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد . وقد قال الاستاذ (فرّان) الفرنسي ان الفضل في تفوق الملاحة البرتغالية يعود الى العرب[3] . والأستاذ (فرّان) هذا هو الذي ترجم كثيراً من مؤلفات ابن ماجد وقد علق عليها وصدّرها بعنوان « مؤلفات ابن ماجد الملقب بأسد البحر الهائج ربان

(١) أذيعت من محطة الاذاعة الفلسطينية في ١٠ يناير ١٩٤٠ ونشرت بأذنها
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي ج ١ ص ٢٨٤ (٣) مجلة المجمع العلمي العربي ج ١ ص ٢٨٢

فاسكودي غاما الذي طاف حول الارض . . . » وثبت لبعض علماء العرب ان فاسكودي غاما استعان بابن ماجد في تسيير اسطوله حول الارض من مالندي على ساحل افريقيا الشرقية الى قاليقوت في الهند . ووضع ابن ماجد مؤلفات عديدة ورسائل كثيرة في علم البحار وكيفية تسيير السفن، هي من المنزلة العالية والتاريخية بمكان عظيم. ومن مؤلفاته النفيسة المعروفة كتاب اقتناه المجمع العلمي العربي بدمشق وهو محفوظ الآن في دار الكتب العربية الظاهرية . واسم هذا الكتاب « كتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد » وجاء في مجلة المجمع المذكور في المجلد الاول « .... والكتاب عبارة عن مائتي صفحة كل صفحة ٢٣ سطراً يتضمن معرفة طريق سير السفن في البحر بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة ....» ونجد في هذا الكتاب كيفية الاستدلال بمنازل القمر والبروج على البلاد التي يقصدها المسافر ، ويتبين منهُ أيضاً ان المؤلف اتخذ بنات نعش وسهيلاً والنانة والجاربن والعيوق والعقرب والنسر الواقع والاكليل والسماكين والنير من ... ة الأدلة التي تساعد المسافرين في الاسفار ، وتدل انهُ علم ذلك بالاختبار، واعترف بأن ثلاثة من مشهوري الربابين سبقوه الى ذلك ، وان الفرق بينهُ وبينهم « ان ما ذكره هو مصحح مجرب وما ذكره أولئك ليس على التجريب منهُ شيء .... » . وفي هذا الكتاب عرض بعض التفور على الاوقيانوس الهندي والبحر الصيني وشكل البرور ومراسي ساحل الهند الغربية والجزر العشر الكبرى المشهورة ،وكذلك وصف تفصيلي للبحر الاحمر بما فيه مراسيه واعماقه وصخوره الظاهرة والخفية، وفيهِ أيضاً بعض أشعار تتعلق بالملاحة والبحار ويتبين من قراءة بعضها انهُ كان منجماً بنفسه وبما استنبطهُ في علم الملاحة إذ قال : —

يفوتك غفلةً نظمي ونثري وتزعم ان ليلك ذو نهار
نوالحرمين لم تظفر بعلم يسيرك في البحار وفي البراري
اذا ما الراميات رمتك فعلق بصدري وحكمي في المجاري

ويجد القارىء في هذا الكتاب بعض أبيات تدل من شأن العلم وتحبيه للناس ويقول ناظمها ان طالبه والساعي اليهِ يزداد رفعة ، وان الذي لا يسعى اليهِ ولا يهمه منهُ شيء يورثه الله الذل والهوان :—

العلم لا يعرف مقداره الاَّ ذو الاحسان عند الكمال
من ناله منهم ترقى بهِ ما بين أعيان الملا واستطال
ومن تراخى عنهُ هوناً بهِ أحوجهُ الله لذل السؤال
فذاك بين الملى أخرس أنعده الجهل بصف النعال

ولابن ماجد رسائل عديدة اكثرها منظوم وجزأ كرسالة (حاوية الاختصار في علم البحار) وفيها بحث في العلامات التي يجب على الربابين معرفتها استدلالاً على قرب البر وفي منازل القمر ومهاب الرياح وفي الستة الهجرية والرومية والقبطية والفارسية ، وفي طريق السفن على ساحل العربية والحجاز وسيام وشبه جزيرة ملقا واطراف بلاد الزنوج وعلى سواحل الهند الغربية وسواحل القرومندل والناط والبنغال وسيام حتى جزيرة بليطون ، وجاوه والصين وفرموزه ، وفي سير السفن على سواحل جزر جاوه وسومطره والنال ومدغشكر واليمن والحبش والصومال وجنوبي العربية والمقران ، وفي المسافات بين الثغور العربية والثغور الهندية ، وفي عرض الثغور على البحر الهندي . وله ايضاً رسالة (المعربة) وفيها بحث عن الخليج البربري ورسالة تبحث في معرفة القبلة في جميع الأقطار يقول في اولها : « لما رأيت الناس يجهلون عن معرفة القبلة وليس لهم اصل علم يعرفونها به خصوصاً في المدن النوائي بقرب البحر وجزره التي يمر بها المسافر نظمت هذه الارجوزة واتيتها بأوضح الأدلة وأسهلها بأربعة وجوه : الوجه الاول بطول مكة المشرفة وعرضها ، وطول البلد الذي فيه الانسان وعرضه ، الوجه الثاني على الجدي ، الوجه الثالث على بيت الأبرة ، الوجه الرابع جهات الكعبة الأربع ... » وله ايضاً ارجوزة بر العرب في خليج فارس وأرجوزة السير في البحر على بنات نعش ، وقصيدة تبحث في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج واسهلها واقطابها . وأرجوزة في بيان بر الهند وبر العرب . وله ايضاً قصائد أخرى يبحث بعضها في معرفة الجهات من الشعرى والنسرى ومن سهيل والسماكين . وله أراجيز غير التي مرّ ذكرها تتضمن المراسي على ساحل الهند الغربية ، وعلى ساحل العربية ، وتبحث في فائدة بعض النجوم الشمالية في سير السفن ، ويذكر فيها ايضاً بعض الكواكب المفيدة للملاحة ، ومنها ما يبحث في الطرق البحرية من جدة الى جنوبي بلاد العرب فبعض بلدان وسواحل اخرى ، ومنها ما يبحث في العصور البحرية والاعماق وعلامات البر وفي الحيوانات التي تعيش في الماء كالضفادع والاسماك والحيتان ، وفي علم الفلك والملاحة ... الخ

هذه بعض مؤلفات ابن ماجد ورسائله ، اتينا على ذكرها ليتبين القارىء الكريم انهُ وجد في العرب من برع في الملاحة ومهر في تسيير السفن ومن ألّف في ذلك المؤلفات والرسائل النفيسة . ومن الغريب أن يجد المرء في هذه المؤلفات وتلك الرسائل ابتكارات ونظريات في علم البحار ما كانت لتخطر على بال المتقدمين . ومن المؤسف حقاً أن تضع اكثر هذه المؤلفات وان تكون ضحية الاهمال وعدم الاعتناء ، اما المحفوظ منها (وهو القليل) الذي عثر عليه بعض المنقبين والباحثين من الافرنج فقد بقي سنين عديدة المرجع الوحيد الذي يرجع اليه الملاحون

في اوربا . ولقد بقيت القواعد التي وضعها ابن ماجد من القرن الخامس عشر للميلاد الى منتصف القرن التاسع عشر منهلاً عامًّا للملاحي الشرق والغرب . وذكر برتن الانكليزي ان بحارة عدن في سنة (١٨٥٤) كانوا قبل السفر يتلون الفاتحة اكراماً لابن ماجد مخترع الابرة المغناطيسية . ومما لاريب فيه ان نسبة اختراع بيت الابرة الى ابن ماجد خطأ وليس فيه شيء من الصحة ، فقد ثبت للعلماء والباحثين ان استعمال الابرة كان معروفاً في أواخر القرن التاسع للهجرة او الخامس عشر للميلاد ، فالقول بأنهُ هو مخترع الابرة غلط . وقد تكون النسبة آتية من مهارته في تسيير السفن وبراعته في الملاحة ووقوفه على أصول الابرة وكيفية استعمالها وفهمه المبادىء المنطوي عليها عملها وتأليفه الرسائل فيها

ولقد ظهر في الأمة العربية كثيرون أمثال ابن ماجد من الذين أتقنوا الملاحة وتسيير السفن وعرفوا عنها شيئاً كثيراً ، وظهر فيها أيضاً من ألف في ذلك التآليف القيمة التي بقيت قروناً عديدة منبعاً يستقي منهُ الأوربيون ، وقد عرفوا كيف يستفيدون منها ويستخرجون محتوياتها بما يعود عليهم بالتقدم والرقي ، ولو جئنا نعددهم ونذكر خصائص كل منهم لطال بنا وخرجنا عن موضوع المقال ، ولكننا نكتفي بسرد بعض الربانين والملاَّحين الذين قطعوا أشواطاً بعيدة في علوم البحار وفي وضع الكتب المتعة في ذلك . من هؤلاء محمد بن شاذان وسهيل بن أبان وليث بن كهلان وسليمان المهري وعبد العزيز بن احمد المغربي وموسى القندراني وسيمون بن خليل وغيرهم . . .

. . . هذه ترجمة موجزة لملاَّح عربي مهر في الملاحة ونبغ في التأليف وترك آثاراً جليلة كانت خير معين للذين أتوا بعده من ربابنة الشرق والغرب ، إذ كانت لهم حلولاً لالغاز علم البحار ومفتاحاً للاطلاع على اسراره والوقوف على دقائقه . ولا ندَّعي اننا في هذا الحديث قلنا بشيء من الواجب نحو ابن ماجد فقد قام بالواجب على الحضارة نحوهُ غيرنا من الفرنجة وعرفوا قدره اكثر منا ولم نكن نحن في هذا الحديث الاَّ عالة على بحوثهم ونتاج جهودهم . وجل قصدنا من هذه الترجمة ان تثير في بعض الذين يعنون بالتاريخ الاسلامي اهتماماً يحملهم يوجهون بعض عنايتهم لناحية الملاحة عند العرب لينفضوا عنها غبار الاهمال ويظهروها على حقيقتها واضحة جلية لايشوبها غموض ، اذ الوقوف على هذه النواحي والتعرف على مآثر السلف في العلوم والآداب والفنون والاطلاع على سير رجالهم وما أدوه من جليل الخدمات للحضارة يخلق في النشء العربي روح الاقتداء بهم واقتفاء آثارهم ، وما يذكي فيهم شعورهم القومي ويثير فيهم الشهامة وحب ركوب المخاطر . وان في هذا كله مايخلق أيضاً روح الاقدام وروح المغامرة ، وهذا هو الذي يوصلهم الى مايصبون اليه من عز لامتهم ورفعة قوميتهم واعلاء لشأن حضارتهم